مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــــ المجلد: 12 / العـدد:01 (مـــاي 2024) ص 362– 380
ISSN: 2335–1381 EISSN: 2602–5949 Legal Deposit: 2013–6352

السّرد المضاد وإعادة تشكيل الهويّة في رواية "مورسو تحقيق مضاد" أو "معارضة الغريب" لكمال داود – قراءة طباقية –

The Counter-narrative and the Restructuring of Identity in The novel «The Meursault investigation » or «Muearadat Algharib» by Kamel Daoud - A coutrapuntal reading-

عبد الغنّي لبيبات
Abdelghani Lebibat
جامعة محمّد البشير الإبراهيمي، برج بوعريريج (الجزائر)، abdelghani.lebibat@univ-bba.dz

تاريخ الاستلام: 2023/03/07	تاريخ القبول: 2023/10/30	تاريخ النشر: 2024/05/16

الملخص : تهدف هذه الدّراسة إلى الكشف عن ملامح استراتيجيّة السّرد المضاد في رواية " مورسو تحقيق مضاد" أو "معارضة الغريب" لكمال داود، والآليات التي اشتغل عليها هذا السّرد الذي أضحى سمة بارزة في النّقد ما بعد الكولونيالي، فكمال داود سعى من خلال ملفوظه السّردي إلى إعادة قراءة رواية الغريب لألبير كامو من زاوية مغايرة، مغيّرا مسار الأحداث من اليمين إلى اليسار، مفكّكا منطق السّرد الأحادي الذي اعتمد عليه النّص الكاموي مقدّما قراءة طباقيّة – باصطلاح إدوارد سعيد – تحرّر صوت التّابع الذي كبّله كامو في صمت عميق، وتعيد تشكيل هويته من جديد و تعطيه سلطة وحضورا، حيث يتمّ كلّ ذلك وفق لغة سرديّة استثنائيّة تتخذ من المغايرة أساسا في بناء مفاعيلها البنيوية.

كلمات مفتاحية: السّرد المضاد، الهويّة، التّابع، القراءة الطّباقيّة، اللّغة.

Abstract

This study seeks to reveal the features of the counter-narrative strategy In the novel « Meusaut Contre Enquete » or «Muearadat Algharib» by Kamal Daoud, and the mechanisms on which this narrative, which has become a prominent feature of post-colonial criticism, worked، Kamal Daoud sought, through his narrative vocabulary, to re-read Albert Camus' novel The Stranger from a different angle, changing the course of events from right to left, dismantling the logic of mono-narrative on which the Camus text relied, presenting a contrarian reading - in Edward Said's terminology - that liberates the voice of the follower who Camus chained him in deep silence, reshaping his identity again and giving him authority and presence, as all of this is done according to an exceptional narrative language that takes the heterogeneity as a basis in building its structural effects.

Keywords: counter-narrative, identity, Subaltern, coutrapuntal reading, language.

المؤلف المرسل: عبد الغنّي لبيبات، **الإيميل**: abdelghani.lebibat@univ-bba.dz

1.مقدمة:

باتت الرّواية كجنس أدبيّ محفلا للقضايا الفكرية والمشروعات الثقافيّة التي تظهر على السّاحة الإبداعيّة وبات السّرد آلية إنتاج للمعرفة، ولم يعد فلسفة للخلق الفنيّ ذي الصّبغة الجمالية، وصارت الرّواية تجنّد براغماتيّا كما هو الحال في الخطاب الكولونيالي الذي سعى إلى توظيف الرّواية كونها فنّ الزّمن في محاولة شرعنة عهد الإمبراطوريّة وتطبيع أهداف الإمبريالية الغربيّة.

وهنا أتى السّرد المضاد كاستراتيجيّة مقاومة ثقافيّة في الخطاب الأدبي ما بعد الكولونيالي لكبح جماح هذه المركزيّة السّائدة في السّرديات الأوربية، وتفكيك منطق السّرد الأحادي، وتحرير صوت وصورة الأصلاني، وتقويض المقولات الصّنمية الجاهزة التي تعرّض لها إنسان العالم الثالث.

وفي كلّ ذلك كانت الرّواية مسرحا لظهور هويات متقاتلة، هذه الأخيرة التي كانت تصاغ ويعاد تشكيلها في كلّ مرّة، ضمن سياقات كرونولوجيّة وأنطولوجيّة مختلفة.

لا تبتعد رواية كمال داود "معارضة الغريب" عن هذا التوصيف، فهي محاولة لإعادة قراءة رواية "الغريب" لألبير كامو، بتغيير مسار ووجهة السّرد، و قلب مسار الأحداث من اليمين إلى اليسار، وفق رؤية معاكسة لما رواه كامو وفق نظرته الكولونيالية، ولهذا جاء اختيارنا لهذه الرّواية كونها تعدّ صورة نموذجيّة لما يصطلح عليه بالقراءة الطباقيّة ونموذج مثالي للسّرد المضاد وآلياته.

وقد جاء هذا المقال في أربعة عناصر، أولّها: التّابع بين السّرد الكولونيالي والسّرد المضاد في الرّواية ما بعد الكولونيالية، وثانيها: إعادة تشكيل الهويّة من خلال التّمثيل السّردي، وثالثها: القراءة الطباقيّة كآلية في مساءلة النّص الكولونيالي، ثمّ رابعا يأتي الجانب التطبيقي من الدراسة بعنوان: السّرد المضاد وإعادة رسم الهوية في رواية (ميرسو تحقيق مضاد) لكمال داود، تعرّضنا فيه بعد تقديم ملخّص الرّوايتين – الغريب ألبير كامو ومعارضة الغريب لكمال داود – إلى آليات الخطاب المضاد في رواية كمال داود، وهي أربعة آليات، أولها : تفكيك السّرد الأحادي ثانيها: التأكيد على العناصر الهوياتيّة، ثالثها: استرجاع صوت التّابع، ورابعها : اللغة الاستثنائية للسّرد المضاد.

وقد اعتمدنا لإنجاز هذه الدراسة جملة من المراجع يأتي في مقدمتها كتاب إدوارد سعيد: "الثّقافة والإمبريالية" وكتاب: "دراسات ما بعد الكولونياليّة" لبيل أشكروفت.

وقد صغنا إشكالية البحث كالآتي: كيف تجلّت استراتيجية السّرد المضاد في رواية كمال داود "معارضة الغريب"؟ وما الآليات التي وظّفها الرّوائي في مساءلة نص "الغريب" لألبير كامو؟

2. التّابع بين السّرد الكولونيالي والسّرد المضاد في الرّواية ما بعد الكولونيالية:

1.2 الذّات المستعمرة في الرّواية الكولونياليّة:

إنّ الثّابت والمعلوم، والمستقر كذلك في سرديات أوروبا التي واكبت تشكيل الإمبراطوريات الاستعمارية هو إمعانها في اختزال شخصيّة الآخر، وتجريده من أيّ خصوصيّة، بل الأسوأ من ذلك هو إظهار عقدة التفوّق الغربي ونقاء وكمال الرّجل الأبيض مع التمادي فيها بشكل منقطع النظير، وتسليط نظرة دونيّة لسكّان المستعمرات، نجد مثلا جون هارمان يقول:"إنّه لضروريّ إذن أن نقبل كمبدأ ونقطة انطلاق حقيقية أنّ ثمّة تراتبيّة بين الأعراق والحضارات، وأنّنا ننتمي إلى العرق والحضارة المتفوّقين ... إنّ المشروعيّة الأساسيّة للفتح والغلبة على شعوب أصلانية تكمن في الإيمان بتفوقيتنا، لا الآلية والاقتصاديّة والعسكرية فحسب، بل الأخلاقيّة أيضا. وإنّ كرامتنا وعزّتنا لترتكزان على هذه الخصيصة، وهو ما يتبطّن حقنا في أن نوجّه بقية البشر ونقودهم، وما القوّة الماديّة سوى وسيلة إلى تلك الغاية... ". (عيشونة، 2016-2015، صفحة 3)

فمن خلال هذا التصريح الخطير – الذي يبدو عاديّا مسلّما به لأنّه قناعة إمبريالية – تظهر لنا السّمة الغالبة على هذه الأدبيات التي تكرّس ثقافة السّيطرة والغلبة والتعالي والتفوّق الذي يغدو حسبها تلقائيّا مبرّرا منهجيّا للتحكّم في الآخر وتوجيهه وقيادته، وهذه النظرة المريبة في الحقيقة هي وليدة تراكمات ناتجة عن اضطراب العلاقة بين الشّرق والغرب خلال فترات زمنيّة متلاحقة، لاسيما فترة الحروب الصليبية، فهذه الأخيرة " عملت على خلق تمثيلات للمسلمين وإدامتها، بوصفهم أشرار وفاسدي الأخلاق، فاسقين وبرابر، جهلة وأغبياء، قذرين ومن نوع أدنى متوحشين وبشعين، مهووسين وعنيفين من وجهة نظر العالم المسيحي ..." (عيشونة، 2016-2015، صفحة 32)

وقد كان إدوارد سعيد من أكبر المهتمين بتفكيك هذا الخطاب الكولونيالي، إذ كشف في الكثير من أعماله عن ملابسات هذا الخطاب وعن أنساقه المضمرة الكثيرة، كما ربطه بالسّياقات التاريخية والثّقافية السّائدة التي عرفتها المجتمعات الغربية، ولذلك نجده يقدّم قراءة ثانية للسّرد الغربي، ويعمد إلى أهم المدونات السّردية الغربيّة التي شكلت في اللاوعي الإنساني غير المتبصّر أعمالا إنسانيّة خالدة، ويقوم باستنطاق ما صمتت عنه، وما لم تودّ قوله، وما قالته كذلك لخدمة الأجندة الإمبريالية، ويركن إلى الرّواية بشكل خاص كونها فن الزّمن الذي واكب سيرورة تطورات المجتمعات الغربية، وكذا عهد تشييد الإمبراطوريات الاستعمارية العظمى، وكونها من جهة أخرى توّرطت إلى حدّ كبير في تبني مشاريع الثّقافة الإمبريالية الغربيّة، يقول سعيد:" لقد تناولت بشكل خاصّ أشكالا ثقافيّة كالرّواية، أعتقد أنّها كانت عظيمة الأهميّة في صياغة وجهات النّظر والإشارات والتجارب الإمبريالية." (سعيد، 2014، صفحة 58)

إنّ الرّواية الأوربية على الوصف السّابق قامت بشرعنة الاستعمار، وتقنين الرؤية الإمبريالية وتطبيعها، حتى لتغدو أمرا مألوفا، ومارست ذلك من خلال تقنيات وأساليب سردية متنوّعة، ترسم فيها غالبا شخصيّة المستعمّر – بفتح الميم – من زاوية واحدة، حتّى ليغدو معها هذا الأصلاني قالبا أو نموذجا ثابتا في بنيته التكوينية، وما يتغيّر هو فقط انتقال دوره ووظيفته من عمل سرديّ إلى آخر – طبعا إن كان له دور أو وظيفة ! –وهذا ما يشير إليه سعيد مرّة أخرى بقوله: " في أوج الإمبريالية العالية في أوائل هذا القرن، إذن لدينا توحيد مفترقي بين المرمّزات المؤرخنة للكتابة المطردة < المنطقيّة> في أوروبا، والتي تفترض عالما في متناول التّمحيص اللاشخصي العابر للقوميات عبر المستوى الكوني من جهة، وعالم مستعمّر إلى مدى هائل من جهة أخرى. وهدف هذه الرؤية المعزّزة والمدمجة هو دائما إمّا ضحيّة وإمّا شخصيّة – سواء أكانت امرأة أم رجلا– مكبّلة بالمقيدات، مهدّدة باستمرار بالعقاب الصّارم رغم فضائلها، وخدماتها وإنجازاتها، العديدة، مقصاة وجوديّا لأنّها لا تتمتّع إلا بالقليل من مواهب الخارجي الفاتح، الماسح، المحضّر ..." (سعيد، 2014، صفحة 229)

من خلال قول سعيد يظهر لنا هول التنميط الذي كان يمارس على مستوى الملفوظ السّردي الغربي خاصّة تجاه الذات المستعمّرة، فهي دائما بلا هوية، بكماء، لا يمكن لها أن تنطق، وإن نطقت فمن خلال صوت الغالب الذي يحدد مسارات نطقها، وبذلك كانت غاية الخطاب الكولونيالي كما حدّدها هومي بابا هي أن " يؤوّل المستعمَرين بوصفهم شعوبا من أنماط منحطّة بسبب من أصلهم العرقي، وذلك لكي يبرّر فتح هذه الشّعوب" (هومي.ك.بابا، 2004، صفحة 151)

إنّ الرّواية الغربية تخندقت في هذا المشروع الثقافي الإمبريالي الأوربي، ومهّدت له، وواكبته، في حين كان من الأجدر على الرّواية أن تنأى بنفسها عن التقوقع في التشريع لسياسة الاستعمار، وأن ينأى بها الرّوائي وبنفسه عن أي يكون أداة مسخّرة في يد الإمبريالية لتحقيق أهدافها الاستيطانية.

2.2 آليّة السّرد المضاد في الرّواية ما بعد الكولونيالية:

لأنّ السّرد الكولونيالي قمع صوت التابع، وأبكمه ، بل جرّد هذا التابع من هويته ومن كيانه، حتى غدا مجرّد ظلال وأشباح، فإنّ سردا من نوع آخر قد كان لزاما عليه البزوغ، ليعيد لهذا الأصلاني صوته، ويبني له كيانا ووجودا، ولأنّ الأوّل كان سمة غالبة في الخطاب الكولونيالي المكرّس للنّزعة الاستعمارية، فإنّ الثاني يعدّ سمة الخطاب ما بعد الكولونيالي المكرّس للنّزعة التحرّرية، إنّه ما يسمّى بالسّرد المضاد، الذي يعدّ سلاح مقاومة ثقافي فكري، وآلية ردّ بالكتابة تسعى إلى تقويض مقولات الرؤية المركزية الاستعمارية ذات الطابع الإمبريالي، فقد عمد الكثير من روّاد نظريّة ما بعد الاستعمار إلى" فضح الخطاب الاستعماري الغربي، وتفكيك مقولاته المركزيةّ التي

تعبّر عن الغطرسة والهيمنة والاصطفاء اللّوني والعرقي والطّبقي، باستعمال منهجيّة التّشتيت والفضح والتّعرية " (حمداوي، 1439هـ -2018م، صفحة 61) إنّه بتعبير آخر " استراتيجية خطابيّة أساسيّة بالنّسبة للذّات في التمثّل وصياغة هويتها عن طريق تأكيد اختلافها مع صور الآخر، اختلافا يأخذ أنماطا متعدّدة من العلاقات" (بوعزّة، 1435هـ-2014م، صفحة 16)

يتحدّث بيل أشكروفت عن هذا المصطلح الذي يورده في مؤلّفه باسم (الخطاب المضاد) مشيرا إلى أنّه قد " صاغه ريتشارد تيرديمان ليصف نظرية المقاومة الرمزية وتطبيقها .... لكنّ نقاد ما بعد الكولونيالية تبنوا هذا المصطلح لوصف السّبل المتواشجة التي يمكن من خلالها توجيه الطّعون من موضع الهامش (peripheral) ضدّ خطاب سائد أو راسخ، وعلى وجه الخصوص تلك الخطابات التي تخصّ المركز الإمبريالي" (وآخرون، 2010، الصفحات 120-121)

فبناء على ما سبق يمكن اعتبار هذا السّرد آلية احتجاج لغوية، استوعبت الخطاب الكولونيالي من الداخل ثمّ قامت بتفكيكه، والطّعن فيه، ومحاولة نقضه لبناء خطاب جديد مواز له في اللّغة والبنى معاكس له في الاتجاه و الفلسفة، وهو في الوقت ذاته استراتيجية في الرّد بالكتابة اجتمعت فيها جملة من المواصفات أهمّها:" قلب (الثنائيات) الّتي انبنى عليها السّرد الكولونيالي، و (تحرير صوت وصورة) الأصلاني أو التابع من منظومات الصور النّمطية التي أنتجها حوله، ورسّخها في المخيال الجمعي على اعتبارها جوهرا وحقيقة " (لونيس، الاستراتجيات التمثيلية في السّرد الرّوائي العربي المعاصر لقضايا الهوية واللغة والآخر ، 1438 هـ -2016 م، صفحة 285)

وبناء على ذلك تشكّل خطاب جديد، معاكس للخطاب الأوّل رؤية ومضمونا، يستعمل أدوات جديدة برؤية جديدة، يسعى من خلالها إلى قلب موازين التصورات الخاطئة في السّرديات الكبرى عن التابع ولتعطي لهذا الصّوت المقموع فرصة التّعبير عن نفسه والرّفض والاحتجاج.

3.2 إعادة تشكيل الهويّة من خلال التُمثيل السّردي:

مع وجود خطابين متعاكسين في الاتجاهات والمرامي والأهداف، و بالرّغم من أنّهما مختلفان في الموقع لكنّهما يمتلكان نفس الأدوات للتعبير- ونقصد هنا الخطاب الكولونيالي وما بعد الكولونيالي- فإنّه لابد أنّ تتمخّض عن الصّراع بينهما قضايا جوهرية، تأتي الهوية في مقدمتها،" ومسألة الهوية على درجة عالية من الخطورة والثّراء بكلّ تعقيداتها وملابساتها وتصالباتها مع ظروف تاريخية وشروط سياسيّة وعقد دينية ... " (ربّوح، 1438هـ - 2016م، صفحة 14)

فالهوية الواحدة هويات، وقد تكون هوية فردية أو جماعية، وتشّكل الهويات على مرّ التّاريخ، يمرّ بسياقات مختلفة، وإذا أردنا أن نستعير مصطلح أمين معلوف هنا، فإنّنا نقول أنّ الهويات باتت تتقاتل في المدوّنات السّرديّة خاصّة الرّواية، فالخطاب الاستعماري يصدّر منجزات روائية تكرّس الهوية المسلوبة للآخر، وتصوّره بدون صوت أو ملامح، في صورة باهتة، وهذا الآخر بدوره إذا ما حمل القلم متبنّيا خطابا ما بعد كولونياليا فإنّه بدوره سيعمل على خلق وإعادة تشكيل هوية يقاتل من خلالها الصورة التي سمّر فيها، ويخلق لنفسه كيانا وملامح وصورة وصوتا وفكرا...

ولذلك نجد أنّ الرّواية ما بعد الكولونيالية طرحت في نسيجها الكثير من التصوّرات "لمفهوم الهويّة ضمن مشروعها السّردي، فتعدّدت الرّؤى والمواقف من روائي إلى آخر، ومن مرحلة إلى أخرى، الأمر الذي يكشف عن مدى ارتباط السّرد بالهوية" (لونيس، الاستراتجيات التمثيلية في السّرد الرّوائي العربي المعاصر لقضايا الهوية واللغة والآخر ، 1438 هـ –2016 م، صفحة 287)

وإذا كانت الرّواية كمشروع ثقافي وبكل ما أصبحت تحمله من حمولات دلالية، قد أصبحت أداة فاعلة في معركة الوعي، تجنّد من طرف المركزية الغربية في تجسيد مشاريع الإمبراطورية الإمبريالية، وشرعنة الاحتلال وتكريس ثقافة الغالب، فإنّها في المقابل أضحت كذلك وسيلة مقاومة ثقافيّة وفكرية وأداة إنتاج معرفة موازية لمعرفة الآخر الغربي، أصبحت ببساطة تحمل إيديولوجيا ومشروعا فكريا يكاد يكون محلّ إجماع من طرف كتّابها في أدب المستعمرات، وإن اختلفت طرائق وأساليب كل روائي في التّعبير وطريقة الاحتجاج.

وفي خضم هذا الصّراع كانت الهويّة ذلك البناء الذي يخضع لإعادة قولبة مستمرّة، تتحكّم فيه السّياقات المتباينة، فهي لا تولد متكاملة إنّها "تولد وتنمو، وتتكاثر وتتغاير، وتشيخ وتعاني من الأزمات الوجودية والاستلاب" (ميكشيللي، 1993، صفحة 7)

والهوية تتموضع في نسيج العمل الأدبي وفق الرؤية التي رسمها الأديب، ووفق الزاوية التي قام من خلالها بتمثيل ذاته والآخر على حدّ سواء، ولذلك فإنّها ترتبط ارتباطا وثيقا بسلطة وقوّة السّرد والتمثيل " وسيكون تعريف فوكو للتمثيل مهمّا في هذا السّياق، فهو يعتبره أساس إنتاج المعرفة، أو هو الذي يجعل المعرفة ممكنة، التّمثيل هو الاستراتيجية الأكثر شيوعا في إنتاج المعرفة، وهو أيضا آلية من آليات فرض الهيمنة : < إنّ تمثيل الآخر هو شكل من أشكال التمثيل العام بوصفه آلية من آليات الهيمنة والإخضاع وجزءا مندغما في مؤسسات الانضباط وأجهزة المراقبة والمعاقبة..." (لونيس، الرواية الجزائرية في مواجهة عنف النظام التمثيلي للرواية الكولونيالية: قراءة في رواية (ميرسو تحقيق مضاد) للروائي كمال داود، 2018، صفحة 211)

فنلاحظ أنّ فوكو يربط ربطا وثيقا بين التّمثيل والهيمنة، هذه الأخيرة التي هي سمة الإمبراطورية الاستعمارية وأدبياتها، التي ترشح من خلال التّمثيلات البارزة في سرود الرّوائيين المتقوقعين في مشروع الإمبريالية، ذلك أنّ تلك المدونات الرّوائية التي تبنت الدعاية المغرضة للاستعمار وإن بطريقة غير مباشرة قد اشتغلت من خلال تمثيلاتها على " آليات إقناع الطّرف الآخر – موضوع التمثيل– بصدقيّة الصورة التي مثّل بها، فكثيرا ما يتمكّن التمثيل من إقناع العبد بأنّه عبد، والأدني بأنّه أدنى... " (لونيس، الرواية الجزائرية في مواجهة عنف النظام التمثيلي للرواية الكولونيالية: قراءة في رواية (ميرسو تحقيق مضاد) للروائي كمال داود، 2018، صفحة 212)

ورسم الهويّة وإعادة تشكيلها من جديد يغدو هاجس هذا الأصلاني، الذي سلب صوته وصورته، من خلال إمبريالية التّمثيلات التسلّطية التي خضع لها في المدوّنات الغربية، ومن خلال ذلك " تعمل الذّات التي تنتمي إلى المستعمرات أو التي كانت ضحيّة المنظومة الثّقافية الكولونيالية على تحرير نفسها من منظومات التّمثيل الكولونيالي، من خلال إعادة اكتشافها لنفسها وابتكارها من جديد ..." (لونيس، الاستراتجيات التمثيلية في السّرد الرّوائي العربي المعاصر لقضايا الهوية واللغة والآخر ، 1438 هـ –2016 م، صفحة 298)

إنّ الأمم كما يقال سرديّات ومرويات، وفي نسيجها تظهر الهويات وتتصارع وتتشكل وتتموضع، لكنّها لا تخضع للثّبات بل هي كالنهر الجاري في تجدّد لا يعرف الانقطاع.

4.2 القراءة الطباقية كآلية في مساءلة النّص الكولونيالي:

إنّ وجود خطابين متضادين في صوتهما السّردي ومشرعهما الثقافي، يفرض آلية لمساءلة هذين الخطابين تأخذ بعين الاعتبار هذه الازدواجية وكذلك جملة الثنائيات المتولدة عن هذا الازدواج، ولا أبرع في هذا الأمر من صياغة إدوارد سعيد " آلية جديدة لقراءة النّص جمع فيها بين الأدب والموسيقى، ونتيجة ربط الموسيقى بالأدب عند إدوارد سعيد هي طريقة للقراءة أطلق عليها "القراءة الطباقية" وهي <قراءة تعوّل على المصطلح الموسيقي الذي يعني وجود لحنين في مقطوعة موسيقية واحدة، وليست أحادية اللّحن>. إنّ هذه الإشارة الدقيقة يمكن إسقاطها على النّصوص، فاللّحن الموسيقي المكوّن من لحنين متوازيين هو التّجربة الإنسانية المشتركة التي يشكّلها صوتان صوت المركز وصوت الهامش، وإذا كتب التاريخ من طرف الصوتين معا، فإنّه سيعبّر بصدق عن الحياة الإنسانية المشتركة ..." (عيشونة، 2016–2015، صفحة 59)

فهذه الاستعارة البارعة لإدوارد سعيد من المنظومة الثقافية الاصطلاحية لعلم الموسيقى مكنته من استبصار وجود صوتين متناقضين مثل الصوتين الموسيقيين المتأتيين من اللّحن الواحد، إنّهما ببساطة صوت المركز وصوت

الهامش أو صوت الأوربي المستعمِر الغالب المتكلّم دائما، وصوت الأصلاني التابع الخاضع الذي لم يُرد له أن يتكلّم.

وقد استثمر إدوارد سعيد هذه الآلية في مساءلة الأعمال السّردية الأوربية الكبرى التي تشكّل أدبا خالدا متلفعا بهالة من التقديس، لأنّه يشكّل فيما يشكّل فكرة النّموذج، ولأنّه يعدّ قبل كلّ شيء تراثا إنسانيا خالصا، واتجه إليه الكاتب لأنّه رأى فيه الكثير من الأنساق المضمرة القابلة للقراءة والتّحليل والتفكيك، فبالعودة إلى تلك المرويّات يتضح " بجلاء أنّ صورة الآخر في الثّقافات المتمركزة على نفسها مشوّشة ومركبة بدرجة كبيرة من التّشويه [...] فالآخر كما قامت تلك المرويّات بتمثيله غفل مبهم، بعيد من الحقّ، وهو في انتظار فكرة أو عقيدة صحيحة لإنقاذه من ضلاله ودونيّته " (إبراهيم، 2017، صفحة 34) يقول سعيد موضّحا استراتيجيته الجديدة في قراءة هذه الأعمال من اليمين إلى اليسار وتفكيك مضمراتها : " وسأحاول أن أصوغ بديلا لبلاغيات الملامة، بل لما هو أكثر تدميرا منها أي بلاغيات المواجهة والعدائية عن طريق معاينة طباقية <كما في الطباق الموسيقي> للتجارب المتباينة بوصفها تشكّل طقما ممّا أسميه تواريخ متواشجة ومتقاطعة. لربما انبثق عن ذلك تأويل دنيوي أكثر إشاقة وإثراء وجدوى من شجب الماضي ومن التّعبير عن الأسف لانقضائه" (سعيد، 2014، صفحة 89)

وهذه القراءة في الحقيقة لم يهدف من خلالها إدوارد سعيد إلى إثارة نعرات أو تهييج مشاعر بقدر ما كانت غايته إنسانية تهدف إلى إحقاق الحقيقة وتصحيح المفاهيم والتصّورات ومحاربة الأخطاء، خاصّة تلك التي غدت مسّلمات بسبب تكرار ورودها في المدوّنات الغربيّة.

إنّ القراءة الطباقية تهدف إلى إنطاق هذا التّابع الذي حكم عليه بالصّمت الأبدي، وتسليط الضّوء على المسكوتات عنها، لأنّها تيّار جارف بين خطابين وبين فلسفتين، ولذلك يلّح إدوارد سعيد على ضرورة أن تدخل القراءة الطباقيّة في حساباتها " كلتا العمليتين: العملية الإمبريالية، وعملية المقاومة لها، ويمكن أن يتمّ ذلك بتوسيع قراءتنا للنّصوص لتشمل ما تمّ إقصاؤه بالقوّة <وهو> في <رواية> الغريب مثلا، التّاريخ السّابق بأسره لاستعمار فرنسا وتدميرها للدولة الجزائرية، ثمّ الظّهور اللاحق لجزائر مستقلّة (اتخذ منها كامو موقف المعارض) " (سعيد، 2014، صفحة 135)

وعليه فإنّ استدعاء التّاريخ والسّياقات الثّقافية التي أنتجت فيها النّصوص ضرورة ملحّة عند ممارسة القراءة الطباقية، ففي المثال الذي ذكره سعيد (رواية الغريب) لألبير كامو هناك صوت مهمّش تمّ تحييده من التّاريخ تاريخ الجزائر الذي رواه وكتبه من يهيمن ويمتلك سلطة الفعل.

وانطلاقا من هذا المثال ستعمل هذه الدّراسة على استنطاق هذا الصّوت الذي أخفاه كامو باحتيال فني في روايته، واستجلاء الطريقة التي اشتغل بها السّرد المضاد عند كمال داود في روايته (معارضة الغريب) الذي سعى إلى إسماع هذا اللّحن الخفي وإعطائه حيّزا وجوديا وهويّة كاملة.

3. السّرد المضاد وإعادة رسم الهوية في رواية (ميرسو تحقيق مضاد) لكمال داود:

1.3 بين الغريب ومعارضة الغريب : (ملخّص الرّوايتين):

1.3.أ رواية الغريب لألبير كامو:

رواية الغريب L'étranger لألبير كامو Albert Camus صدرت سنة 1942 عن دار غاليمار، ترجمت إلى اللغة العربية سنة 1990 عن دار الآداب ببيروت.

تدور أحداث رواية الغريب حول شخصيّة رئيسيّة هي "مورسو" بطل الرّواية، تقع أحداثها بمدينة الجزائر سنة 1942، يقيم البطل علاقة بفتاة اسمها "ماري كردونا" تضرب على الآلة الحاسبة في مكتبه، يتلقى موسو في أحد الأيّام برقيّة من مأوى العجزة بـ "مارنغو" مدينة تقع على بعد ساعتين من مدينة الجزائر، تبلغه وفاة أمّه، وعليه أن يحضر في اليوم الموالي لدفنها، يستقلّ مورسو الأتوبيس إلى مارنغو يشارك في مراسيم دفن أمّه، يدفنّ أمّه هناك ثمّ يعود أدراجه إلى الجزائر.

في اليوم الموالي ليوم الدّفن يستيقظ مورسو ليكمل حياته، كما كان يعيشها من قبل بين غرفته والمكتب وصديقته ماري التي يقابلها كلّ يوم أحد المصادف ليوم عطلته.

ذات ليلة يدعوه "ريمون" لتناول العشاء في غرفته، والسّهر معه تلك اللّيلة، فيحدّثه عن عشيقته العربيّة ومشاكله معها، واكتشافه خداعها، فيقترح عليه مورسو أن ينتقم منها بطريقة ما، يتلقّى "مورسو" اتصالا هاتفيّا من "ريمون" في أحدّ الأيّام، يدعوه لقضاء يوم العطلة عند صديقه "ماسون" على شاطئ البحر، فقبل الدّعوة ورافقتهما ماري كذلك، يذهبون للسّباحة في البحر، وتناول الفطور في بيت ماسون– كوخ صغير يعيش فيه مع زوجته– يخرج الرّجال الثّلاثة إلى الشّاطئ، يصادفون رجلين عربيّين كانا يقتفيان أثر"مورسو، ريمون، وماري" منذ ركوبهم الأتوبيس، إنّه شقيق عشيقة ريمون وصديقه، يدور بينهم شجار عنيف، تجرح ذراع ريمون بسكين كان يحملها غريمه، يأخذه ماسون إلى طبيب قريب، بينما يعود مورسو إلى الكوخ ليبقى بجوار المرأتين.

يعود ريمون إلى الكوخ وقد ضمّدت ذراعه، ليقرّر بعدها الخروج إلى الشّاطئ مجدّدا، فيتبعه مورسو، ظلاّ يتمشيّان على الشّاطئ حتّى وصلا إلى منبع خلف صخرة ضخمة، وجدا العربيّين هناك، يتبادلون نظرات عدائيّة ومريبة، يحاول ريمون أن يخرج مسدّسه ويطلق النّار عليهما، لكنّ مورسو يقنعه بأنّه ليس هناك مبرّر لذلك، يختفي

العربيّان فجأة خلف الصّخرة، والبطل وجاره يعودان إلى الكوخ، كان ذلك اليوم شديد الحرّ والشّمس حارقة، بعد لحظات من دخولهما الكوخ، يعود مورسو إلى الشّاطئ يتمشّى إلى غاية النّبع البارد، كان يفكّر في أخذ قسط من الرّاحة هناك هروبا من الشّمس، فيصادف غريم ريمون هناك مجدّدا، يتواجه الطرفان دون شجار أو عراك، كانت الشّمس قاسية على مورسو، تقدّم خطوة إلى الأمام ليتخلّص منها، فيخرج العربيّ سكينه، فتنعكس أشّعة الشّمس على وجه مورسو، فيتوتّر ويفقد السّيطرة على يده فيضغط على نابض المسدّس، يطرح العربيّ على الشّاطئ قتيلا ثمّ يضيف أربع رصاصات أخرى على جسده الميّت.

يوقف مورسو مباشرة، يستجوب ويحقّق معه في القضيّة، وأثناء التّحقيقات التي أجريت معه في المأوى يصل قاضي التّحقيق، إلى أنّه لم يحزن لموت أمّه ولم يقم بواجبه معها، وأنّه تصرّف ببرودة حيال موتها، ليجد مورسو نفسه متّهما بقضيّة جديدة هي عدم الإحساس، وإهماله لوالدته.

يحاكم مورسو وسط ضجّة كبيرة على جريمتين، الأولى قتله العربيّ، والثّانية إهماله لأمّه عند موتها، فيبرّأ من الجريمة الأولى رغم توفّر الأدلّة، ويدان في الجريمة الثّانية ويحكم عليه بالإعدام.

1.3.ب رواية "مورسو تحقيق مضاد" أو "معارضة الغريب" لكمال داود:

مورسو تحقيق مضاد Meusaut Contre Enquete رواية لكمال داود صدرت سنة 2013، بالجزائر بمنشورات البرزخ، ترجمت إلى العربيّة بعنوان: "معارضة الغريب" سنة 2015 تحت إشراف دار الجديد ببيروت بقلم ماريا الدويهي وجان هاشم، وهي ردّ على رواية "الغريب" لكامو، تتّخذ من مدينة الجزائر فضاء لها بقرية اسمها حجّوط، أو مارنغو سابقا، في سنة 1962.

تدور أحداث الرّواية حول هارون شقيق موسى القتيل في رواية الغريب لألبير كامو، يعيشان مع أمّهما في حجوّط، يعمل هارون في دائرة تفتيش أملاك الدّولة، وموسى حمّالا في المرفأ، أبوهما حارس ليلي يهجر والدتهما دون سبب محدّد، إلى وجهة مجهولة ولا أحد يعلم عنه شيئا.

يلتقي هارون بطالب فرنسي في حانة اعتاد ارتيادها، يعدّ هذا الطّالب أطروحة دكتوراه حول رواية "الغريب" يعيد هارون سردها له من وجهة نظره، يقصّ عليه كيف قتل موسى على شاطئ مدينة الجزائر، وهو يدافع عن شرف فتاة على يد فرنسي، وكيف أنّه لم يعثر على جثّته.

يترك مقتل موسى أثرا رهيبا لديه، لدرجة أنّه يطارده شبحه في كلّ مكان، فيفكّر في الانتقام، تساعده في ذلك أمّه التي دخلت في حالة من الحزن والرّغبة الشّديدة في الانتقام من قاتل هارون، قتل أيّ فرنسي لا على التّعيين كفيل بردّ حقّها كأمّ، وليس بالضّرورة القاتل نفسه.

في مارس 1962 تمّ الإعلان عن وقف إطلاق النّار والاقتتال بين الثّوار والمستعمرين، ومع بداية خروج المعمّرين من الجزائر يستولي هارون وأمّه على منزل أسرة أحد المستوطنين الذين غادروا الجزائر قبل الإعلان الرّسمي للاستقلال.

بعد إعلان الاستقلال في 5 جويلية 1962، وفي تلك اللّيلة فرّ أحد الفرنسيين هاربا من الأهالي، ليدخل بيت هارون بالصدفة لاجئا إليه، فيستغلّ هارون الفرصة للثّأر لأخيه، وتحرّضه أمّه على ذلك، فيقتله هارون برصاصتين ويدفن الفرنسيّ في فناء المنزل، وفي اليوم الموالي يأتي الجنود للبحث عن فرنسيّ اختفى تلك اللّيلة، تمّ توجيههم من طرف الأهالي إلى بيت هارون لأنّهم سمعوا صوت إطلاق نار يخرج من هناك.

اعتقل من طرف جبهة التّحرير وأثناء التّحقيقات يعترف بارتكابه الجريمة، فيتضح أنّه مدان بها لأنّه ارتكبها في الوقت الخطأ بعد الإعلان الرّسمي لاستقلال الجزائر، لذلك لم يعتبر عمله ثوريّا واتّهم بالعمالة لأنّه لم يشارك في الحرب، في صباح اليوم الموالي يطلق سراحه من دون أيّ تبرير.

2.3 آليّات السّرد المضاد وإعادة تشكيل الهوية في رواية "ميرسو تحقيق مضاد":

1.2.3 تفكيك منطق السّرد الأحادي:

عمد كمال دواد في روايته إلى تفكيك الصّوت الأحادي الماثل في رواية الغريب لألبير كامو، ذلك أنّ رواية الغريب تشكّل نموذجا للخطاب الكولونيالي المركزي الذي يسعى إلى قمع صوت الآخر و تكريس صوت واحد طاغ لا يعلى عليه، وهو في رواية كامو صوت القاتل مورسو الذي قتل العربيّ بكلّ برودة دم، ولم يكلّف نفسه حتّى منح اسم لهذا المقتول ولو من حبر.

وبذلك تأتي رواية كمال داود لتشكّل نموذجا من نماذج الرّد بالكتابة معتمدة السّرد المضاد، هذا الأخير الذي يؤكد باستمرار على " اختلافه وتمايزه عن السّرود المركزية، وذلك بتأكيده على العناصر القومية التي تشكّل هويته وهو يقوم بتفكيك السّرد الأحادي الذي أشاع عن الآخر بأنّه لا يملك قدرة تمثيل نفسه" (عيشونة، 2016-2015، صفحة 73)

فكمال داود في روايته مورسو تحقيق مضاد قام بتفكيك منطق السّرد الذي بنيت عليه رواية الغريب، وأعطى لهذا العربيّ المقتول المقموع سرديّا أعطاه حضورا في نصّه ومنحه هوية، وقدّم زاوية مغايرة لمنطق الأحداث والوقائع التي جرت في المتن الرّوائي الأوّل، ولا يمكن أن يتأتى ذلك في الحقيقة إلاّ لكاتب يعي جيّدا منطق السّرد الكولونيالي واحتيالاته الفنيّة، ويعي بدرجة أكبر خطورة السّرد الذي أصبح أداة إنتاج للمعرفة، يشرعن للقوّة والهيمنة فبات واضحا أنّ من يملك قوّة السّرد وقوّة اللّغة فإنّه يملك السّلطة والحقيقة المطلقة، أدرك الرّوائي ذلك فعبّر عنه

بلسان السّارد هارون وهو يتحدّث بمرارة عن عقم التّحقيق في مقتل أخيه موسى لمّا قال: " استحال إثبات أنّه عاش علما أنّه مات علنا. استحال إيجاد رابط وتأكيده بين موسى وموسى نفسه ! فكيف تقول ذلك للإنسانيّة إذا كنت لا تجيد تأليف الكتب ؟ " (داود، 2015، صفحة 23)

ومعنى هذا أنّ الذي يملك قدرة على الحبك والتأليف بإمكانه أن يقول ما يشاء وكيف ما يشاء لأنّ ذلك يغدو بالنسبة له مصدر قوّة، وأداة هيمنة، وهو بالضبط ما صنعه كامو بالعربي لمّا غيبه.

ولهذا نجد كمال داود يصرّ على قلب منطق السّرد الأحادي المتصلّب، فبعد أن يمضي صفحات في روايته يرجع ويستطرد ليقّدم البداية الحقيقيّة المفترضة للقصّة التي لم ترو حسبه من طرف كامو بصدق، إذ يأتي على لسان السّارد هارون قوله : " لا تبدأ قصّة هذه الجريمة إذن بالجملة الشهيرة : <اليوم ماتت أمّي>، بل بما لم يسمعه أحد قطّ، أي بما قاله أخي موسى لأمّي قبل أن يخرج في ذلك النّهار: <سأعود أبكر من العادة> ..." (داود، 2015، صفحة 19)

فعنف العبارة الأولى راسخ في المتخيّل الجمعي، وكمال داود عرف أنّ تلك الجملة تشكّل بؤرة رواية الغريب فأراد أن ينطلق منها ليقلب موازين السّرد ويؤسّس لرؤية جديدة مضادة، تحمل في طياتها المسكوت عنه، وتجهر بصوت عال بالحقيقة من الزاوية المثلى، وهو يعلن عن ذلك صراحة على لسان هارون لمّا يقول: " الأمر بسيط يفترض إذن إعادة كتابة هذه القصّة، باللغة نفسها لكن من اليمين إلى اليسار. أي البداية من جسده الحيّ والأزقّة التي قادته إلى حتفه. واسمه الأوّل وصولا إلى تلقيه الرّصاصة ..." (داود، 2015، صفحة 14)

إنّه يقدّم التفاصيل الحقيقة، والقصّة الكاملة لسبب قتل العربي في رواية الغريب أو موسى في معارضة الغريب، فالمرأة التي قتل بسببها لم تكن أبدا شقيقته وإنّما قد تكون فرنسيّة من المومسات اللواتي ولع كامو بتصويرهنّ في روايته، ممّا جعل السّرد الأحادي جائرا بحسب هارون، إذ يصرّح : " إلاّ أنّ روايته جائرة لأنّ تلك المرأة لم تكن شقيقة موسى، ربّما في نهاية المطاف كانت واحدة من اللواتي شغف بهنّ. لطالما رأيت أنّ سوء الفهم نتج من هنا، من جريمة مركّبة عزيت إلى ما لم يكن في الواقع سوى تسوية حسابات دنيئة..." (داود، 2015، صفحة 31)

هكذا يقدّم كمال داود على لسان بطله الحقيقة التي ظلّت متوارية بسبب وقوع القارئ في سطوة منطق السّرد الفرعوني الذي لجأ إليه كامو، ونحن هنا إذ نستعمل هذا المصطلح – السّرد الفرعوني – فلأنّنا نجد دعامة لذلك في متن رواية موسو تحقيق مضاد، ففي نظرنا لم يكن اختيار كمال داود لشخصيات روايته المحورية بأسماء موسى وهارون اعتباطيّا، وإنّما جاءت هاتان الشّخصيتان كنبيّين يريدان تقويض الرؤية السّردية الفرعونية التي اتسم بها

أسلوب كامو في رواية الأحداث، فلا نراه في الحقيقة إلاّ مجسّدا لما جاء في القرآن الكريم على لسان فرعون لمّا قال لقومه :﴿*... مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ*﴾" (قرآن كريم، سورة غافر، الآية 29)

فقد امتلك كامو وبطله سطوة السّرد كما امتلك فرعون تجبرا سطوة القهر، فجاء هارون وموسى ليقوّضا مقولة النظرة الجبروتية المتعالية ومنطق السّرد الأحادي للأحداث.

2.2.3 التّأكيد على العناصر الهوياتيّة:

أدخل وتعتبر هذه الغاية جليّة في رواية "ميرسو تحقيق مضاد" باعتبارها من أهمّ أشكال المقاومة بأساليب سردية مضادة، فقد سعى كمال داود من خلال نصّه كهدف أوّلي أن يعطي للعربيّ في رواية كامو اسما به تتحدّد هويته، فسمّاه "موسى" كما أعطاه وجها وملامح وكينونة أخرجته من غياهب الإهمال والتهميش، وهذا ما دفع أحد الدراسين للرواية إلى القول بأنّ:" معارضة الغريب شكل مغاير ومتقدّم من أشكال الرّد بالكتابة ... فكمال داود هنا لا يواجه المستعمر بضجيج نضالي من خارجه، بل يندسّ بين شقوقه لينسف دعاواه الفكرية، إنّه يمارس تصديع النّص الأصلي ليقيم نصّه بين تلك الصّدوع " (العبّاس، 2016)

تتجلّى لنا هذه الاستراتجية التي مارسها كمال داود منذ افتتاحيّة روايته، فإذا كانت رواية الغريب لألبير كامي تبدأ بذلك المطلع المشهور: " اليوم ماتت أمّي. أو ربّما ماتت أمس، لست أدري ... " (كامو، 2013، صفحة 9) فإنّ كمال داود ببراعة فنيّة – توحي منذ البداية بكون روايته تأسّس لمشروع قراءة ثانية من زاوية معاكسة لمسار أحداث رواية الغريب – نجده قد بدأها بعبارة مخاتلة، إذ جاء في افتتاحها قوله : " أمّي اليوم مازالت على قيد الحياة. صامتة، لا تنبس ببنت شفة، علما أنّ في جعبتها الكثير لتقوله ... " (داود، 2015، صفحة 7)

فمنذ هذه البداية نستطيع أن نتنبّأ بكون الرّواية ستشتغل على المسكوت عنه في رّواية الغريب، وستسعى إلى إنارة الدّهاليز التي تركها كامو مظلمة، لاسيما فيما يتعلّق بهويّة (العربي).

وهذا الأسلوب الذي يعمد إليه كمال داود هو في الحقيقة " أسلوب ما بعد حداثي يسمّى بالاستحواذ على النّص الأصلي، وإعادة إنتاجه بمرئيات ومقاربات مختلفة، لها ما يبرّرها فنيّا وموضوعيّا " (العبّاس، 2016)

إنّ رواية "معارضة الغريب" هي رواية تجعل من الحقيقة هاجسها الأوّل، ولذلك كان لزاما عليها أن تعطي للتابع فرصة لأن يتكلّم، وكيف سيتكلّم وهو مقتول ؟! هنا يجيء السّرد ليحمل على عاتقه هذه المهمّة في الرّواية ولذلك ذهب أحد الباحثين إلى القول بأنّه " بين السّرد والقتل علاقة وطيدة في الرّوايتين: رواية الغريب حيث الرّواية تقوم على مشهد قتل ميرسو للعربي، ورواية تحقيق مضاد التي هي رواية البحث عن القاتل والثّأر للمقتول ... "

(لونيس، الرواية الجزائرية في مواجهة عنف النظام التمثيلي للرواية الكولونيالية: قراءة في رواية (ميرسو تحقيق مضاد) للروائي كمال داود، 2018، صفحة 221)

إنّ القتل في رواية كامو هو رديف التّغييب كذلك، فالعربي في رواية الغريب قتل في نظرنا مرّتين، قتله بطل الرّواية مورسو في المرّة الأولى، وقتله الرّوائي نفسه –كامو– إذ حرمه من اسم وهوية، إنّه لم يكد يذكر بقدر ما ذكرت عبارة الشّمس الحارقة في الرّواية، إنّه شيء إضافي هامشي، ولذلك كان هاجس كمال داود في روايته أن يعطي للعربيّ اسما يحدّد هويته فسمّاه موسى.

يتساءل ويجيب هارون – في هذا السّياق– عن سبب هذا الطمس والتغييب الذي تعرّض له شقيقه المقتول " وما سبب هذا الإغفال؟ هو أنّ الأوّل يتقن فنّ السّرد حتّى إنّه نجح في التعتيم على جريمته، بينما الثّاني مجرّد بائس أمّي، بدا أنّ الله خلقه فقط لكي ترديه رصاصة ثمّ يعود إلى التراب ... " (داود، 2015، صفحة 24)

إنّ القاتل بحسب هارون يتقن فنّ السّرد وحبك الأحداث فقد استطاع أن يطمس الوقائع ويغيّب صوت المقتول كما غُيّبت جثته، ولهذا نجد اسم موسى يتكّر ر بكثافة في نصّ الرّواية، وكأنّ السّارد أراد أن يثأر له بتكثيف سلطة حضوره ولو اعتباريا، كرّد فعل على التغييب الذي مورس ضدّه من طرف كامو وبطل روايته مورسو فها هو السّارد يهتف " موسى، موسى، موسى ... أحبّ أحيانا أن أكرّر هذا الاسم كيلا يختفي من الأبجديات..." (داود، 2015، صفحة 23)

ولاسم موسى كذلك دلالة رمزيّة خاصّة وأنّ شقيقه قد جاء اسمه كذلك هارون، وجاء ليحمل عنه وزر الحكي، وليضيء الدياجي بالحقيقة، فلهذين الاسمين رمزية دينية لا تخفى، فلطالما كان النّبيّ هارون عونا لأخيه موسى –عليهما السّلام– في دعوته، بل كان سنده الذي يعتمد عليه، فحين توجّه موسى إلى فرعون لدعوته نجده يدعو بهذا الدّعاء «**وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي* هَارُونَ أَخِي* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي* وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**» " (قرآن، سورة طه، الآيات من29 إلى 32)

كما أنّ هناك قضية أخرى يمكن أن نلمحها في هذا السّياق تبّرر سبب إعطاء كمال داود سلطة السّرد في نصّه لهارون، وهي كذلك –فيما نزعم– مستنبطة من السّياق القرآني، فمعلوم من القصص الدّيني أنّ النّبي موسى عليه السّلام كان يعاني ثقلا وعجمة في لسانه، فلم يكن فصيحا، ولذلك احتاج في تبليغ دعوته لفصاحة أخيه هارون، ولذلك يجيء على لسانه في القرآن الكريم قوله: ﴿**وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ**﴾" (قرآن، سورة القصص، الآية 34) هو الأمر ذاته في هذا النّص، إذ يعاني

موسى ثقلا أبديّا في اللّسان فرضه عليه كامو لمّا قيّده بلفظ العربيّ و جرّده من كلّ ميزة كلامية فكبّله في أغلال الصمت، فاحتاج لمّا أراد أن ينطق ويعبّر في رواية المعارضة إلى أخيه هارون ليروي قصّته دون تحريف.

وهكذا نجح كمال داود إلى حدّ بعيد في إعادة تشكيل هويّة العربي الذي حكم عليه كامو بالموت غدرا وصمتا، فأعطاه اسما وهوية وملامح، وهذه آلية مهمّة من آليات استنطاق النّص الحامل لرؤية كولونيالية متسلّطة كان – الغريب –يبدو معها منذ الأزل تحفة فنيّة لا يمكن الاقتراب منها إلاّ للنّهل من جمالياتها وليس لمساءلة مرجعياتها.

3.2.3 استرجاع صوت التّابع:

سعت رواية "مورسو تحقيق مضاد" لإعطاء سلطة حضور للعربيّ – التّابع بلغة النقد ما بعد الكولونيالي – الذي كان مهمّشا في سرد كامو، فكمال داود في روايته كان يمارس قراءة طباقيّة باصطلاح ومفهوم إدوارد سعيد لنّص مشبع بثقافة كولونيالية، مليء بالمرمزات المقزّمة للأصلاني، طافح بالمضمرات التي يمكن مساءلتها، ومعلوم أنّ " القراءة الطباقيّة التي اقترحها إدوارد سعيد هي قراءة ثقافيّة للنّص الأدبي، وهي بذلك بحث الأنساق الثّقافيّة المضمرة التي يخفيها النّص، من تضمينات كولونيالية و إشارات مشفّرة، وهي بحث صوت التّابع الذي لم يتكلّم ... " (عيشونة، 2016–2015، صفحة 61)

لذلك عملت رواية كمال داود على تحرير صوت وصورة هذا الأصلاني التّابع، ومنحته هوية وجواز عبور إلى القارئ، ليعبّر عن حقيقته، وأن يعيد سرد الأحداث بالمنطق الذي يرتضيه وهو الذي كان مقموعا في السّرد الكاموي التسلّطي، ذلك أنّ " رواية الغريب ليست فقط عملا تخييليّا. بل هي كذلك تعبير عن تصوّر ما للتاريخ الذي كتبه الأقوياء، ألم يكن ميرسو في موقع القوّي في مشهد الجريمة ؟ كان يحمل مسدّسا في حين كان العربيّ يحمل مديّة . وفضلا عن ذلك كان يحمل لغة ويحمل صوتا، ويحمل اسما ... كلّ شيء كان مهيّئا لأن يكون هو القوي الذي يكتب التاريخ ... لهذا السّبب تكتب الكتب العظيمة، لأجل مواجهة أسئلة الإنسان العميقة والمتجذرة في مأساة وجوده. أراد هارون أن يكتب قصّة موسى لهذه الأسباب، لكي يعلن عن التّاريخ المقصى في رواية الغريب، أي في الرواية الكولونيالية التي جعلت الآخر في موقع المنهزم، وفي موقع الضّعيف، وفي موقع الهامشي ..." (لونيس، الرواية الجزائرية في مواجهة عنف النظام التمثيلي للرواية الكولونيالية: قراءة في رواية (ميرسو تحقيق مضاد) للروائي كمال داود، 2018، صفحة 222)

ولأنّ المنتصر هو دائما من يكتب التّاريخ، فإنّ مورسو القاتل كتب تاريخ (العربيّ) الذي لم يتجاوز كونه ذاتا بدون ملامح، يمكن أن تقتل لأيّ سبب، وفي أيّ وقت، وبكلّ ببساطة، وهذا ما يبّرر سبب نزوع كامو إلى تفويض

بطله مورسو بتجريد العربيّ من خصوصيّة الاسم، وهو ما اكتشفه هارون، إذ يقول : " فإذا سمّى أخي (العربيّ) فذلك لكي يقتله كما يقتل الوقت، في التنزّه بلا هدف ..." (داود، 2015، صفحة 23)

ولذلك سعى كمال دواد من خلال السّرد المضاد في نصّه أن يحرّر صوت العربيّ موسى بالنطق، على لسان شقيقه هارون، كما كان يكرّر اسمه عديد المرّات في نسيج نصّه، و يقف مرارا عند خصائص شخصيّته النفسيّة والفيزيولوجيّة، كي تتبدّى صورته ماثلة في الأذهان، وننسى تلك الصّورة الشّاحبة الضّبابيّة الذي فرضها نصّ كامو على العربيّ.

يصفه هارون قائلا : " كان موسى أخي البكر، فارغ الطول، كبير القامة نعم، إنّما جسمه نحيل أعقد بسبب الجوع والقوّة المتولّدة من الغضب. كان وجهه حادّ التقاطيع، ويداه طويلتين تدافعان عنّي، ونظراته قاسية بسبب الأرض التي فقدها الأجداد ..." (داود، 2015، صفحة 16)

ولذلك آلمه جدّا أنّ بطلا أسطوريّا كموسى كانت نهايته مبتذلة في مأساويتها، وكان قتله مجانيّا، لم يكتب له الخلود الذي يليق بمن هم في مستواه " يوم علمنا بمقتله، وبالظروف التي أحاطت به، لم أشعر لا بالألم ولا بالغضب، بل بخيبة الأمل أوّلا، وبالمذلّة... كان موسى أخي كفيلا بشقّ البحر ومات ميتة ضئيلة كنكرة بلا قيمة " (داود، 2015، الصفحات 18–19)

لكن على الرغم من بشاعة هذا الموت وتفاهته إلاّ أنّ هارون استطاع أن يكتب لأخيه موسى ميلادا جديدا وأن يعطيه صوتا وصورة نابضة بالحياة، من خلال براعة السّرد التي امتلكها بتفويض من الرّوائي كمال داود، الذي أحسن اختيار شخصية هارون، فكانت على درجة من الكفاءة والاقتدار بحيث قامت بمحاكمة النّص الأصلي، الذي ظلّ على مدى ما يناهز السّبعين عاما كأيقونة ساحرة وتحفة ثمينة لا يمكن أن تثار حولها الأسئلة أو يشكك في نوايا كاتبها ومضمراته النّصيّة.

4.2.3 لغة السّرد المضاد وأفق المغايرة والاستثناء:

أدرك كتّاب ما بعد الكولونيالية ما تشكّله اللّغة من أهمية في كسر الخطاب المركزي الأوروبي وتقويض مقولاته، فاستعملوا نفس اللّغة التي استعملها الأوروبي ولكنّ بطريقة مغايرة فحرّفوا مسارها، وفكّكوا مرمّزاتها المؤرّخنة والمكرّسة لدنوّ مكانة الأصلاني وتبعيته وانحطاطه وتخلّفه وضعفه الدائم ." والكاتب المستعمّر باستخدامه لغة أجنبيّة، يعيد بناء الواقع الثّقافي المعبّر عنه في الخطاب الغربي وتأطيره. وثمّة إعادة خلق وموقعة سياقيّة للتّاريخ تتجاوز المعارضة المحضة ولاسيما ذلك المكتوب من منظور خطّي وأحادي المعنى. ويهدف هذا المشروع إلى استرجاع هوية الإنسان " (واليا، 2007، صفحة 53)

ففي رواية "معارضة الغريب" وجدنا كمال داود يشتغل على اللّغة على مستويين، فيعتمد اللّغة الفرنسية كلغة كتابة روائيّة ليردّ على النّص المعارض "الغريب" بلغته الأصلية، أمّا المستوى الثاني فهو تسريبه للوعي اللّغوي لشخصيته الروائية المحورية التي اعتمد عليها في السّرد، شخصيّة هارون، لمّا تبصّر هذا الأخير بضرورة اعتبار اللّغة الفرنسيّة غنيمة حرب باستعارة تعبير كاتب ياسين، فلم تكن له حساسيّة في التعامل معها، بقدر ما ألفاها مادّة خام تساعده في توجيه منطق السّرد الحكائي بالطريقة البراغماتية التي رسمها مسبقا فهو يقول: " كتب الكاتب بلغته، ولذلك قرّرت أن أحذو حذو النّاس في هذا البلد بعد استقلاله: أعني استعادة حجارة منازل المستوطنين سابقا لأبني بها منزلا لي، لغة لي. إنّ كلمات القاتل وعباراته هي "ملكي" السّائب ..." (داود، 2015، صفحة 8)

إنّ اللغة بكلّ طاقاتها التّعبيرية تمّ تأثيثها بحمولات ثقافية مؤسسة لمشاريع الإمبراطورية الاستعمارية فأصبحت وسيلة من وسائل الخطاب المركزي الأوروبي، وأصبح الرّوائيّون الأوروبيون مجنّدون بأقلامهم ولغتهم في بسط الطريق أمام هذا الخطاب، فالمتأمل للغة رواية رواية "الغريب" لألبير كامو ولبنيتها السردية كذلك يلاحظ أنّ " المفارقة اللاذعة في أنّ كامو حيثما يسرد قصّة في رواياته أو في مقطوعاته الوصفيّة، فإنّ الحضور الفرنسي في الجزائر يصاغ إمّا كسرديّة خارجيّة، جوهرا لا يخضع للزّمان أو التأويل ... أو بوصفه التاريخ الوحيد الجدير بأن يسرد كتاريخ . (وكم هو مختلف في الموقف واللهجة <كتاب> بيير بورديو علم اجتماع الجزائر الذي صدر أيضا عام 1942، والذي يدحض تحليله صيغة كامو الصبيانيّة التافهة ويتحدّث صراحة عن الحرب الاستعمارية بوصفها نتيجة لوجود مجتمعين اثنين في حالة صراع). إنّ عناد كامو المتمادي ليفسّر الفراغ والغياب في خلفيّة العربي الذي قتله موسو ..." (سعيد، 2014، صفحة 239)

وإذا كانت هذه مواصفات اللّغة السّردية في الخطاب الكولونيالي، فإنّه كان لزاما على لغة السّرد المضاد كما هو الحال في رواية كمال دواد معارضة الغريب، أن تحمل معول الهدم وتمارس الفرادة والاستثناء في كشفها للمستور وتعريتها للسّرد الكاموي، وفي الرّد عليه بلهجة تحترف فن المراوغة والعبث بقوالب النّص الأصلي المنتصب بلغته كتمثال لا يتزحزح، وإلى اللّغة التي اعتمدها كامو – في نصّه والتي تصوّر ما يمكن أن نسميه بشعريّة الموت المجّاني الذي تعرّض له العربيّ أو موسى – يشير السّارد هارون معلّقا عنها في رواية معارضة الغريب قائلا:" أرأيت أسلوبه؟ لكأنّه يتوسّل فنون الشّعر، للحديث عن طلقة ناريّة ! عالمه خاصّ، منقوش بصفاء صباحيّ، دقيق، نقيّ، عابق بالنّكهات والآفاق. لا تشوبه سوى ظلال العرب، تلك الكائنات الضبابيّة غير اللائقة..." (داود، 2015، صفحة 9)

فنلاحظ من خلال هذا المقطع هنا أنّ اللّغة الاستثنائية التي اعتمدها كمال داود في سرده المضاد قد تمكنت في فضح العبث الجاثم في سرد كامو، فهذا الأخير يعتمد لغة في منتهى الشّاعرية لوصف مشهد قتل إنسان بريء لم يذكر لا اسمه ولا هويته، لأنّه ينطلق من مرجعية استعمارية وخلفيّة تحتقر العرب عموما وتعتبرهم كائنات عديمة الجدوى وغير مرغوب فيها.

4.خاتمة:

يمكننا أن نوجز أهمّ النّتائج التي توصلنا إليها في بحثنا هذا فيما يلي:

- عمدت السّرديات الغربية الكولونيالية إلى تهميش وإلغاء صوت التّابع، منطلقة من مركزيتها المتعالية فجاء السّرد المضاد في الخطاب ما بعد الكولونيالي كاستراتيجيّة للرّد على تلك السّرود وتقويض مقولاتها وإعطاء فرصة للتابع أن يتكلّم.
- أضحت الرّواية كجنس أدبي حداثي تحمل مشاريع ثقافيّة وتعكس الهويّات المتصارعة، ففي نسيجها يتموضع الجدل بين الأنا والآخر، وبين الهنا والمكان الآخر.
- القراءة الطباقيّة استراتجية فاعلة في مساءلة النّصوص المركزيّة أتى بها إدوارد سعيد، وهي قراءة كفيلة بمحاورة النّصوص الحاملة لرؤية أحادية سرديّة مركزية واستجلاء الصوت الثُّاني الخفي والكشف عن المضمرات في نسيج النّصوص.
- رواية "معارضة الغريب" لكمال داود تجربة سردية ما بعد حداثية فريدة من نوعها، تجسّد الخطاب المضاد بآليات مختلفة، فهي تعيد قراءة نص "الغريب" لألبير كامو، وتفكّك مرجعياته وترجع للعربيّ هويته وحضوره وصوته المسلوب.

5. قائمة المراجع:

- القرآن الكريم.
- إبراهيم، عبد الله، (2017)، المطابقة والاختلاف، مؤمنون بلا حدود للنّشر والتّوزيع، الرّباط، المغرب.
- أشكروفت، بيل وآخرون، (2010)، دراسات ما بعد الكولونيالية، تر: أحمد الروبي، أيمن حلمي، عاطف عثمان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر.

- بن علي، لونيس، (2016)، الاستراتجيات التّمثيلية في السّرد الرّوائي العربي المعاصر لقضايا الهوية واللغة والآخر، بشير، السّؤال عن الهويّة في التأسيس ... والنّقد... والمستقبل، منشورات الاختلاف الجزائر، ص283-301.
- بن علي، لونيس، (2018)، الرواية الجزائرية في مواجهة عنف النظام التّمثيلي للرواية الكولونيالية: قراءة في رواية (ميرسو تحقيق مضاد) للروائي كمال داود، مجلة اللغة العربية، ع41، ص210-231.
- بوعزّة، محمّد، (2014)، سرديات ثقافيّة من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، منشورات الاختلاف، الجزائر.
- حمداوي جمال،(2018)، نظرية ما بعد الاستعمار الأطروحة في خدمة علم الاستغراب، مجلة الاستغراب ع12، ص57-73.
- داود، كمال، (2015)، معارضة الغريب، تر: ماريّا الدويهي وجان هاشم، دار البرزخ، الجزائر.
- ربوّح، بشير، (2016)، فرش معرفيّ لسؤال الهوية: الهوية الطفولية ... نزعة ارتكاسيّة، بشير، السّؤال عن الهوية في التأسيس ... والنّقد ... والمستقبل، منشورات الاختلاف، الجزائر، ص 13-21.
- سعيد، إدوارد، (2014)، الثّقافة والإمبريالية، تر: كمال أبوديب، دار الآداب، بيروت، لبنان.
- العبّاس، محمّد، (2016)، كمال داود يعيد كتابة رواية «الغريب» من اليمين إلى اليسار، مجلّة القدس العربي الإلكترونيّة، على الرّابط: https://www.alquds.co.uk/كمال-داود-يعيد-كتابة-رواية-الغريب/، تمّ الاطلاع عليه بتاريخ:2022/04/15.
- عيشونة، لمياء، (2016)، السّرد والسّرد المضاد في سياق ما بعد الكولونيالية، مذكرة مكملة لنيل شهادة ماجيستير، قسم اللغة والأدب العربي، كليّة الآداب واللّغات، جامعة محمّد الصديق بن يحي، الجزائر.
- كامو، ألبير، (2013)، الغريب، تر: عايدة مطرجي إدريس، دار الآداب، بيروت، لبنان.
- ك. بابا، هومي، (2004)، موقع الثّقافة، تر: ثائر ديب، المجلس الأعلى للثّقافة، القاهرة، مصر.
- ميكشيللي، اليكس، (1993)، الهويّة، تر: علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطّباعيّة، دمشق، سوريا.
- واليا، شيلي، (2007)، إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، ترجمة وتقديم: أحمد خريس وناصر أبو الهيجاء، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.